

٣ - مولود فرعون

لننتقل الآن إلى كاتب آخر يدعى مولود فرعون يقص علينا حياته في جبال القبائل بأسلوب واقعي ، جذاب مؤثر ، وقصته في الحقيقة هي قصة قومه الفقراء الذين يعيشون في فقر ويموتون في فقر ، فلا يثورون ولا يتدمرون كأن هذا مصير طبيعي محتوم لكل إنسان على وجه الأرض ، ولذا توج مولود فرعون غلاف روايته « ابن الفقير » بعبارة للكاتب الروسي تشيكوف تعكس روح القصة وترسم الإطار الذي تدور فيه حوادثها « نحن نعمل لخدمة سوانا ، حتى سن الشيخوخة والعجز ، وعندما يدنو أجلنا نموت دون دمدمة وتقول في العالم الثاني : إننا ذقنا الآلام ، وبكيننا وعشنا سنين طويلة من المرارة وأن الله سيرأف بنا » .

وألف مولود فرعون رواية « الأرض والدماء » وهي التي فازت بجائزة الأدب الشعبي في فرنسا سنة ١٩٥٣ ، انتزع بها الجائزة من خمسين كاتباً فرنسياً منافساً إياهم في ميدانهم وفي لغتهم ، وألف أيضاً كتاباً عنوانه « أيام القبائل » وهو

مجموعة أبحاث عالـج بها موضوعات اجتماعية في أوساط القبائل في الجزائر.

ولد مولود فرعون في قرية تابعة لمديرية « فورناسيونال » في منطقة القبائل العليا .

ويظهر أن مولود هذا كان في بدء حياته راعياً أو على استعداد ليكونه ، ولكن الحظ حالفه فاستطاع أن يتعلم ويدرس ويفوز بالشهادة فيعين معلماً ابتدائياً في قريته مما جعله يرتفع قليلاً عن مستوى بيئته وأن ينعم وذويه بشيء من اليسر المادى بعد الحرمان والجوع . فقصته إذن قصة هذا النضال الموفق ، بل هذا الوصول إلى هدف تنهى عنده مطامع صاحبه ، بل قصة شخصية رجل في أدوار تكوينها ونمائها وارتقائها في بيئة فقيرة منعزلة وشغل صاحبها بتحصيل القوت الضرورى عما عداه من أمور الدنيا .

وقد نالت رواية « ابن الفقير » شهرة بعيدة في الجزائر أولاً ثم تعدتها إلى أفريقيا الشمالية كلها حتى غدت من الكتب الأدبية الكلاسيكية ، يدرسها الطلاب على أنها من روائع الأدب المغربى المكتوب بلغة فرنسية .

تجرى حوادث الرواية في قرية نائية من قرى القبائل الجبلية ، وهي قرية أشبه بغيرها من قرى الريف في الشرق العربي في فقرها وخصاصتها وبدائيتها فالبيوت حقيرة ، والأزقة ضيقة ، معوجة ، يملأها الغبار صيفاً ، والوحل شتاء بنيت البيوت من اللبن وسقفت بالحشب والقصب والشوك ، وطلبت الحدران بالكلس ، وإذا نظر القادم إلى القرية من بعيد تراءت له بيوتها المترابكة كفقرات « عمود فقرى لحيوان هائل منقرض من حيوانات ما قبل التاريخ » وما سر هذا التلاحق والتراكب إلا شعور الفلاح من قديم الأزمنة بالوحشة والانعزال وما يصحبهما من خوف تجاه للطبيعة الجامحة ، والمناخ القاسي ، وحاجات الحياة ، على أن في القرية بيوتاً جديدة تجلب النظر ، بناها أصحابها من المال الذي جمعوه في فرنسا ، فكانت هذه البيوت « بواجهاتها الصارخة وقرميدها الأحمر وسط البلى العام تنبئ عن ترف في غير محله » .

إن حياة القرية كحياة كل فرد من أفرادها عالم مستقل صاحب في أفراحه وأحزانه ومطامعه وتناقضاته وآفاته النفسانية ، إلا أنه عالم محدود ، غريزي ، بدائي يدور كله في فلك الرغيف وبلغة العيش ، ويظهر أنه كلما كانت البيئة فقيرة ، كان

النزاع بين الأفراد أشد ، والصراع من أجل البقاء أقوى ، ومع أن الطابع العام الطبيعي للقريّة هو المساواة وانعدام الفوارق ، فقد كان هناك فقراء وأغنياء ، فقراء لا يملكون إلا بجهد الأيدي ومثانة السواعد ، وأغنياء لم تتجاوز ثروة أحدهم بضع شجرات تين وزيتون وهمكتاراً من الأرض الصالحة للزراعة وأحياناً يتبوع ماء في الحقل ، ولكن هذا كاف لكي يثير عند الفقراء الإعجاب المقرون بالحسد ، على أننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن الفلاحة تجرى في أرض جبالية كلها انحدارات حتى إذا جمعت المساحة وأحصيت الأطراف والشعاب لم تتجاوز المئة متر مربع ، يحرقها فدان لا يكبر الثور فيه الحروف الكبير ومع ذلك فإن التقاليد تقضى بأن يكون الأعور بين العميان ملكاً فليتكلم هذا الملاك الغني في الاجتماعات بصوت عال وليكن السيد المطلق في بيته ، وليحتفظ بالسلطان والإعجاب اللذين هما المظهر المرئي للثروة ، إذ لولا هذا المظهر المعنوي لما امتاز ممن لا يملك شيئاً ، إذ أنه يعمل أكثر من الفقير ، يعمل مع عماله ويأكل معهم ويلبس مثلهم ويشاطرهم أتعابهم وإن كان لا يشاطرهم همومهم وأحزانهم .

في هذه البيئة الفقيرة حيث جرد أهل البلاد من أراضيهم الحصبة وحشروا في بقاع ضيقة يعجدهم أهلها لاستنباط الخيرات

من الأرض الشحيحة ، يصبح الفقر مصدراً للآفات الاجتماعية
ويصبح معه القوت اليومي قضية أساسية يتركز عليها سلوك
الأفراد ونمط حياتهم وتفكيرهم وتفاعلاتهم مع محيطهم ، وهكذا نجد
أن أهل القرية التي ولد فيها المؤلف يتآخون ويتعاونون ويتناشدون
ويتحاسدون ويجمعون ويصبرون في إطار من الاستسلام لمشيئة
الأقدار والرضى بالقليل والرزق المقسوم . والمهم في الأمر أن
مولود فرعون أو فورواو كما سمي نفسه شهد النور في قرينته
الجبلية وشهدت هذه مراحل حياته منذ كان طفلاً يجرى إلى
أن أصبح معلماً ، وتطل علينا من خلال روايته شخصيات
تمثل كل واحدة منها دورها الحقيقي دون تكلف أو تصعيد بل
في واقعية قريبة جداً من الحياة ، وقد أبدى مولود فرعون في
روايته هذه موهبة نادرة في فهم النفوس وإحساساً نفاذاً قادراً
على الاندماج والتقمص في أبطاله وتحريكهم من الداخل
والخارج وبث معاني الحياة فيهم . ومن هؤلاء الأشخاص من له
دور أساسي تتجمع فيه العناصر الهامة ومنهم من هو ثانوي
يظهر بين وقت وآخر ليكمل صورة أو يمثل دوراً أو يدعم
فكرة أو يبدى وجهة نظر ، وحياتة الكاتب كحياة كل قروي
خالية من الضجيج في العلم الخارجي إلا أنها غنية من الناحية

النفسية ، كما أن طفولته وإن لم تكن سعيدة فهي ليست تعيسة على وجه الإجمال ، فقد كان هناك في أسرته من يهيء له السعادة وأجواء الحنان ويدفع عنه عوادي الزمان ، منهم أبوه رمضان وأمه فطمة وعمتاه خالتي وزانا ، أما أبوه فقد عمل وضحي من أجل أسرته ولم يدخر وسعاً على فقره من إدخاله المدرسة والقيام بنفقاته وهو كما وصفه « أسمر اللون ، قوى الجسم فيه صفات الفلاح القبيلي كمتانة البنيان وصلابة الأعصاب ، له جبهة مربعة وأنف أفطس صغير وشفتان رقيقتان ، ووجنتان عريضتان فيه عادة إغماض عينه اليسرى عندما ينظر إلى الناس ، وقد حاولت أمه أن تخلصه في صغره من هذه العادة القبيحة فلم تفلح كما حاولت أن يقلع عن عادة المشي بتثاقل كالدب لأن هذه المشية تعطيه في كل خطوة ينخطوها شكل من يستعد لرفع حمل ثقيل أو ملاقاته خصم معتد » . أما أمه فطمة فهي قصيرة القامة ، صفراء الوجه ، هزيلة ذات وجه طويل ووجنتين ناتئتين ، نظراتها وديعة مملأى بالكآبة المحيية ، ولا تجيد من أنواع سوى طهى « الكوسكوس » .

وهناك عمته اللتان تحبانه وتعطفان عليه كثيراً ، تقطنان في بيت صغير أشبه « بعش مدور مظلم » ولكن الداخلى إليه

يشعر بحرارة الألفة الهادئة حتى لكأن الجدران تمسك في كل حركة من حركاتك ، فيخيل إليك أنها تداعبك ، وأن الأثاث يبتسم لك في الظل . »

وقد لعبت عمته دوراً كبيراً في حياته ، حتى استغرقتنا جزءاً كبيراً من روايته وسط الحوادث الكثيرة التي قصها علينا ، فهما مدرسته الأولى التي تكونت فيها نظرته للدنيا وركبت فيها أجزاء شخصيته ، وكانت عمته الكبرى تحكى له الحكايات في ليالي الصيف والشتاء ، ومن تلك الحكايات تعرف على حد قوله « على أخلاق الناس وأحوال الصالح والطالح والقوى والضعيف والماكر والساذج ، وكانت عمى تستطيع إبكائى وإضحاكى . . لأنها كانت تتأثر بالقصة التي ترويها ، وإذا سمعتها خيل إليك أنها تؤمن بكل ما تقول ، فهي تضحك وتبكي كابن أخيها ، وإذا كانت عقدة الحكاية محزنة جدا نمنا معاً تحت تأثير القلق يضم كل واحد منا الآخر من شدة الفزع وإلى أن يقول : « . . . وكانت الحكاية تسيل من فم عمى فأشربها بنهم » .

وقد أجاد مولود فرعون تصوير الجو الأسرى ببراعة فائقة فأطلعنا بأسلوب سهل طبيعي على لوحات من حياة القوم ،

وإذا كانت الحياة طريقاً طويلة مزروعة بالحوادث والآفات والمصائب فإن من هذه الحوادث ما يعنى عليه النسيان والعدم، ومنها ما يظل حياً يعيش معنا ويكيف حياتنا الشعورية واللاشعورية ، وإذا كان ما قاله أحد الكتاب من أن « أفضل أجزاء العبقرية هو ما كونه الذكريات » فإن رواية مولود فرعون غنية بالذكريات الهادئة والعتيفة على السواء ، وكان من حسن حظ الكاتب أن هذه الذكريات محزنة وكئيبة لا لأن ذكر الفواجع والكوارث أوقع في النفس البشرية بل لأن الفواجع والأحزان تأتلف وهذه البيئة الفقيرة وهذا الشعب المعذب ، فهي أدعى للبراعة الوصفية والكمال الفني ، فقد مات أبوه بعد رجوعه من فرنسا من الإعياء والتعب ومن جراء جرح أصيب به في إحدى المعامل ترك فيه أثراً عميقاً يمتد من الصدر حتى أسفل السرة » وماتت عمته الأولى على إثر ولادة ، وماتت الثانية بعد أن أصيبت بالحنون حزناً على أختها وهنا يتجلى فن مولود فرعون الوصفي قال يصف نهاية عمته الأولى : « لقد ماتت بين أذرع أخواتها بعد ليلة قضتها في عذاب ، تاركة حنيناً بارداً مسكيناً صحبها إلى القبر ، لقد ظلت بجثة الصغير معلقة بأمه منذ أول الليل ، وأخذت عزيمة « نانا » تخور شيئاً فشيئاً فيغمى عليها

في كل لحظة حتى لم تعد سوى حظام بشرى ، وكان يسمع لأحشائها قسقة فيسيل موج الدم فيسمع له صوت كقرقرة الماء يندفع من فم الجرة ، وكان بالإمكان نزع هذه الثمرة الحبيثة العالقة بأحشائها ، ولكن الله لم يرأف بعمتي فإن عمل الحياة يجب أن ينتهي بالموت ، فدام احتضارها حتى الصباح ولفظت أنفاسها بهدوء مع آخر نجمة في السماء .

ويسترسل مولود فرعون في وصف المشهد ببراعة لا يجيدها إلا من عرف المصائب والآلام فألفهما : « ولا أزال أرى عمتي « نانا » وهي مسجاة على بساط عرسها ، مغطاة بقماش أبيض ، ووضع لها منديل أصفر يسند ذقنها ويحيط بوجهها ، وكانت عيناها مغمضتين وأنفها مكزوزاً ووجهها شاحباً كلون المنديل ، ويخيل للناظر أنها نائمة ، ولكن للنوم أشكالا ، فهناك نوم التعب ، ونوم العافية ، ونوم المريض المضنى المعنى ، والموت شيء آخر . . . والآن عندما أراها وأفكر بها جيداً ، وبعد أن شاهدت وجوهاً أخرى فإن وجه « نانا » نحال من المعاني ، فليس فيه أثر للابتسام أو الثورة ، أو الألم أو الراحة ، لا شيء من كل هذا ، ذلك هو الموت ، فإذا مات عزيزٌ علينا فلن يربطه بنا شيء بعد ذلك ، وإن ثوباً تعلقه في مكانه الاعتيادي أجدى

في بعث الذكري من جثة الفقيد ، ترى ماذا يقول وجه « نانا »
الجميل الذي أحببناه جميعاً ، والذي يضحك لنا جميعاً ،
لقد أخذ الموت كل شيء وترك لنا قناعاً لا يابه بنا ينصبه
كحاجز منيع تصطدم عليه آلامنا فلا يسمع لها صدى .

هذا وفي الرواية مقاطع ولوحات عديدة توفر للقارئ متعة
حسية يؤدي العامل العاطفي دوره في خلق الانطباعات القوية
المؤثرة في النفس فمن ذلك قوله في وصف نظرات المجنونة :
« رفعت إلى عينين لم أعرفهما ، عينين زائغتين تأبيان أن تتعرفا
على ، وكانتا تلمعان بين آونة وأخرى فتشعان بضياء غريب
ثم تنطفئان فجأة بعد أن يجالهما حجاب كثيف لتغيبا في عالم
مبهم ، بالعينى المجنون إلى لا أكاد أراهما حتى تجتاحنى هزة
إذ هما وحدهما يعكسان آلام الروح وتفتشان بحيرة عما فقدته
القلب والدماغ » .

أو متعة عقلية وذلك بالدلالة على بعض القضايا والظواهر
الاجتماعية كقوله في وصف حفلة صلح بين شجار وقع بين
حين يدافع العصبية والأحقاد القديمة : « انتهى الصلح وأكل
الكوسكوس وقرأت الفواتح الأولى عن روح الأحياء والثانية عن
روح الأموات والثالثة عن روح الأولياء والرابعة للمزروعات

والخامسة لمجد الأسرة ، وكانت الأخيرة أحبها لقلب جلدتى وهى التى كانت تتلوها بحماسة .

أو متعة فنية بتسجيل اللمحات النفسية الحاطفة كقوله فى وصف مشاجرة نسائية : « فى زقاق ضيق جرت معركة نسائية صاحبة ، مضحكة ، وكن فى تجمعهن يشكلن عنقوداً متحركاً متنوع الألوان ، حيث يمتزج اللون الأسود بلون القوط الأحمر ، وبينما كان الرجال يفرقون جموعهن كان بعضهم ينتهزن الفرصة لتوجيه ضربة غادرة أخيرة إلى عدوتها » .

أو قوله فى وصف نسوة كن ينظرن إليه فيشعر بالحياء والحجل : « كانت لهن عيون كبيرة سوداء ، فكأن نظراتهن عندما تهبط على تجردنى من ثيابى » .

وهو فى كل ما كتبه يدل على أصالة قوية هى أولى سمات

الأدب الرفيع .

تمجلى موهبة مولود فرعون فى وصف الريف ، فهو ابن الريف ، فيه عاش وفيه تكوّنت شخصيته ، ولعل نشأته فى وسط الفلاحين قد أوجدت عنده هذا الإحساس بحياة الفلاحين ، ويمكنه من دراسة أحوال أهل هذه القرى الجبلية النائية ، وتصوير عاداتهم وتقاليدهم وتصوراتهم وأنماط حياتهم المادية

والاجتماعية . أقول دراسة أحوال لأن رواية « الأرض والدماء »
 التي ألفها مولود فرعون قد تضمنت إلى جانب الناحية الروائية
 دراسة اجتماعية قيمة تكشف لنا أسرار هؤلاء القوم المنعزلين عن
 العالم الخارجي ، المنطوين على أنفسهم ، الراضحين تحت وطأة
 العادات القبلية والعصبية العرقية ، ولو أردنا مقارنة هاتين
 الناحيتين الروائية والاجتماعية لرجحت الثانية على الأولى في
 الطرافة والمتعة .

وخلاصة الرواية أن الشاب الجزائري عامر بن قاسي هجر
 قريته شأن أمثاله من أبناء قريته إلى فرنسا ليعمل في مصانعها
 ومناجمها بعد أن باع أرضه ، وبعد غياب دام خمسة عشر عاماً
 عاد إلى قريته ليعمل في الحقل ، فوجد أن أباه قد مات ،
 وأن أمه كمومة تعاني الفقر والعوز ، وكان أثناء وجوده في فرنسا
 قد تعرف على فتاة فرنسية هي ابنة عمه « حمدوش » من
 خليلته الفرنسية « إيفون » فتزوجها وعادا معاً إلى قرية « أنجل
 نزمان » وقد أثارت عودته إلى القرية التطفل والدهشة والاستنكار
 عند الكبار والصغار . وبعد مدة من الزمن استطاعت الزوجة
 أن تتكيف مع المحيط الجديد وأن تعيش فترة ذاقت فيها طعم
 الهدوء والسعادة ، ولكن عامراً أحب ابنة عمه « شهباء » وبعد

حوادث كثيرة لعبت فيها الغيرة وتقاليد العرض في هذا المحيط
المقفل قتل عامر وابن عمه سليمان زوج شهباء في انفجار لغم
أرضي ، وعادت القرية إلى حياتها السابقة الرتيبة .

* * *

عاد عامر إلى قريته بعد أن عاش في فرنسا متنقلاً بين
مدنها الصناعية ، فاستقبلته قريته الصغيرة بخصاصتها وبؤسها
تلك القرية التي هي « مجموعة بيوت بنيت من أحجار وطين
وخشب ، وهي في بدائيتها تكاد لا ترمز إلى تدخل يد الإنسان
الساذجة في بنائها ، فكأنها بنيت لوحدها كما عرضت لساكنيها ،
حتى إنها لتعتبر أعجوبة في هذه الأرض العاقة التي اختلطت
بها ، والتي يعيش عليها كل فرد من أفرادها حتى ينهي به
المطاف إلى نوم أبدي تحت بلاطة من الحجر الأسود . . .
إننا لا نجد في القرية أي أثر للإنسان ، متيناً أو ضعفاً ،
معقداً أو جميلاً يستطيع أن يتحدى به العصور ، أو يدل به
على ماضٍ مجيد ، بل نشعر هنا بجهد الإنسان المنعزل ، القليل
الغناء ، الجلف ، المجرد عن الوسائل ، الذي يكدح ليعيش .
والمفهوم أن هذا الجهد المتواصل لا يذهب أبعد من عمر إنسان ،
ولذا كان التراث في هذه القرى ضئيلاً ، وكان على كل جيل

أن يبدأ البناء من جديد ، وألا يشتغل إلا ليومه ونفسه .
لقد تغير كل شيء في القرية حتى معالم الأشياء
والمخلوقات لم تعد لها تلك البهجة فإن « الطريق التي تلتهمها
الأشواك البرية قد أصبحت حقيرة ، والسنديانة الكبيرة التي
تصور أنها ستكون عملاقة ، والتي كان يفكر بها كلما شاهد
دوحة في فرنسا لم تعد تستحق أى احترام ، فهي هنا تنتظره منذ
خمسة عشر عاماً بأوراقها الغبراء المتناثرة الموزعة ، وشكلها
العجوزى النحيل الذى ليس فيه شيء من معانى العظمة ،
لقد شاخت شجيرات التين ولكنها لم تكبر ، وهنا وهناك
جدول يابسة ، وأغصان متكسرة ، وشجرة فتمية شوهتها
الحيوانات . . . إنه حقل كئيب !

أما السكان فهم هؤلاء الفلاحون التافهون الذين يعيشون
كالنمل يشد بعضهم بعضاً ، يكتفون بالقليل ، راضين بنصيبهم
كأنهم لا يشكون لحظة في أنه يمكن لهذا النصيب أن يكون
أكبر وأحسن !

تلك هي القرية التي عاد إليها عامر مصحوباً بزوجه
الفرنسية « التي تبدو عليها علائم الإرادة القوية كأنها مسلحة
لجابهة الحياة » وكان لا بد له من أن يشعر بشيء من

الحجل لما تقع عليه عيونهما من مناظر التأخر والبداية ، فهو يشعر بما يشعر به كل من ذاق طعم الحياة الغربية وأعجب بنظامها ونمط عيشها ، فكأن السنين الطوال التي قضّاها بعيداً عن مسقط رأسه وأهله قد أوجدت هوة بينه وبين محيطه الأصلي ، وقد تستمر هذه العقدة طويلاً إلى أن يطبق عليه المحيط من جديد فتتلاشى المؤثرات والذكريات بفعل الزمن ولنسيان والعادات الجديدة المستردة فيحتل مكانه كفرد من أفراد القبيلة « ليس لغيابه الطويل من معنى سوى كونه فاصلة كبرى يستحيل عليهم تغيير معنى الحملة العام » .

كان عامر يشعر عند دخوله القرية بالحجل لمنظر « حماة الطين الزرقاء التي تنساب من أبواب البيوت ، في سواق رفيعة ، لقد نجعل من كتل الغائط التي تنن في الزوايا ، ومن هذه الجدران الشبه منارة والمرقعة بحصر القصب ، بل من هذه الأكواخ الحقيبة القذرة التي سودها الدخان ، إن هذه المناظر كانت ناقمة على عامر لأنه فضح أمرها أمام هذه الأجنبية » . إن عامراً لم يخف عن زوجه هذه الحقائق ، فقد حدثها كثيراً عن الحياة في القرية كيلا ينتابها اليأس وتصدمها الحيبة ، على أنه لا بد للعائد من تعويض يخفف من الفوارق بين الحياتين

الأوربية والريفية البدائية ، وإلا لأصبحت الحياة شبه مستحياة ، فإن عامراً لم يلبث أن عقد مفاضلة بين ما كان فيه وبين ما هو قادم عليه ، فما لبث أن علم أن البلاد التي أدهشته بعظمتها كان فيها « صغيراً ضئيلاً » . فهو هنا يشعر بأهميته وقدرته على العمل واحتلال مكانه في عالم القرية ، ثم إن الالتزامات التي تحلل منها عند مغادرته قريته قد برزت أمامه من جديد ، فقد يحب ويبغض ، ويقلد ويحسد ، ويؤمن ويعمل حسب توجيهات دقيقة صادرة عن أسرته وأقربائه ، وهو شاعر بهذه التوجيهات عن طريق الحدس كما لو انتقلت إليه بالإرث لشدة رسوخها في أعماق نفسه .

وفي القرية أشخاص فرحوا بلقائه وأنسوا به ، إلا أن هناك شخصاً خفق قلبه لهذا اللقاء أكثر من أى قلب ذلك هو قلب أمه كمومة التي عاشت بعد موت زوجها على صدقات أهل البر والإحسان من أهلها وأقربائها ، فلما عاد جدد أملها بالحياة وأعاد إليها اعتبارها المفقود وكرامتها المهذورة ، وقصة كمومة مليئة بالجوانب الإنسانية التي أبدع مولود فرعون في إظهارها وتحليلها ، ولعل شخصيتها من أقوى الشخصيات المؤثرة التي عرضها في كتابه ومن أجلها إلى قلبه ، فهي « امرأة

عجوز ، فقيرة ، مسكينة ، مثقلة بالتجارب والسنين ، وهي تجهل أين وصلت من حياتها ، تزوجت في وقت مبكر من قاسى أب عامر فعاشت ضمن أسرة كثيرة الأفراد ، وكانت الحياة صعبة فتعلمت الصبر والكدح وذاقت الظلم والأذى ، فكانت الضحية في أغلب الأحيان ، ولكنها إذا سنحت الفرص ترد على الأذى بمثله ، رزقت أولاداً ذكوراً وإناثاً ، وعرفت آلام الوضع دون عناية ، وعرفت أيضاً ليالى السهر والمرض وسنى الحرمان والجداد ، ثم كتب لها أن تشهد تمزق الأسرة في القرية ، وتبعثرها في المقبرة ، فلاقى أولادها أهلهم في القبور ، وفي يوم من الأيام وجدت كمومة نفسها وحيدة مع زوجها ووالدها عامر . . . فوضحت عندئذ المسألة ، إذ ليس أسهل عليهما من أن يربيا ولدهما عامر ويجعلا منه رجلاً بأسرع ما يمكن ليعيل بعد ذلك أبويه العجوزين ، فأحيط عامر بالعناية والدلال ، وعومل ليس كولد وحيد بل كينبوع ثر للطمأنينة المقبلة والسعادة الشيخوخية الأنانية .

على أنه تبين في النهاية لأبويه أن قوانين الكون تسير على خلاف ما يريدان ويشتهيان ، وأن التضحية والذداء عند الأبوين يقابلها المنع والأنانية عند الأولاد ولذا غدا هذا « القصر

المنيف الذي كان منه عامر في حجر الزاوية يضيئه كالشعاع المنير وهماً وسراباً خداعاً ، وأنه هذه الطمأنينة التي يجب أن تسيج أيامهما الأخيرة ، والولد البار الذي سيطبق لهما أجنانهما بعد مفارقة الروح الجسد أملاً ضائعاً من الأولى ألا يفكراً فيه ، لأن عامراً بعد سفره إلى فرنسا قد شغل بنفسه عن أمه وأبيه .

لم تكن كمومة براضية عن زواج ابنها ، وهي مؤمنة بأن هذه الأجنبية لا يمكن أن تكون زوجاً لابنها ، إن ما يناسبه هي فتاة من القرية نفسها ، وفي القرية كثيرات من الفتيات الجميلات اللواتي يرغبن به وهو الشاب الجميل الذي عاد ظافراً من بلاد الغربية يحمل ثروة لا بأس بها ، وكانت ظنون كمومة وتشاؤها يذهبان بعيداً في تحليل مساوي الزواج من الأجنبيةات ، وخطر هذا الزواج على حياة أولادهن إذ لا يبعد أن تصرع الأجنبيةة زوجها في ساعة غضب غير آبهة بالقانون التي يساندها في عملها ، وقد شارك أهل القرية كمومة في اعتقادها فهم يشيعون بأن عامراً أصبح عبداً لزوجته ، وهمس آخرون بأنه اتخذ امرأة سيدياً له ، وأشار غيرهم بشيء من الشماتة إلى أن الأجنبيةة عبء ثقيل على مالكتها !

لقد اصطدم عامر بعقبتين : سكان القرية من جهة ،

وعادات القرية وتقاليدها ، فهو إن استطاع أن يدلل مصاعب الأولى ، فهو أضعف من أن يتغلب على الثانية . فإن نساء القرية لا « يردن الأجنبية » فهن قد جئن ليسلبن زوجاً لم يجدن أحسن منه في بلادهن ، فعلى الأجنبية إذن أن تتحمل متاعب هذه المغامرة ، وعليها أن تتحمل أيضاً الانتقادات الموجهة إلى سلوكها وطريقة لبسها وشكلها واغتمها ، وعليها إذا أرادت العيش بسلام بين ظهرانين التصامم عن الهزء والسخرية ، وشراء صداقات بعضهن بالهدايا ، وتملق الآخرات والظهور بمظهر التواضع والإيناس إلى أن تندمج تدريجياً في الرهط ، وهي طبعاً لن تدخله إلا من الباب الصغير :

وإذا رحنا نفتش عن صفات مشتركة بين هذه الأجنبية وبين نساء القرية لوجدنا أن ماري لم تكن أجنبية بالمعنى العادى لهذه الكلمة بل هي من عالم آخر يختلف تماماً عن عالمهن « إذ لم يكن بينها وبينهن من صفة مشتركة سوى الجنس » وكن يعرفن مقدار اعتزازها بفرنسياتها وعدم جدوى المقارنة قائلات :

« لتعتبر نفسها أعلى منا قدرأ ، وهذا شأنها وحدها ، وإن نذهب إليها لنقول لها رأينا فيها » .

على أن الذى جعل هذه الأجنبية ترضى بالحياة الحشنة

التي هي أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة هي أن حالها في فرنسا لم يكن بأحسن من حالها في القرية ، فقد كانت تعيش شأن الكثيرات من أمثالها العائلات اللواتي يدأبن ليلاً نهاراً لتحصل الكفاف وذلك في محيط جائر ، قاس ، استغلالاً فيه أخطار الغواية ، ومآسى التخريب ، فقد تعذبت كثيراً قبل أن تلتقى عامراً ، وتعاورها عدة رجال ذاقوا منهم الهجر وأوان الغدر والخسة والحيانة ، فكان لا بد من الرحيل خلاصاً من هذه الحياة المرهقة ، إن كوخ الأم كمومة لم يكن أفضل من الغرفة المفروشة رقم ٤ في شارع باربيس في باريز ، وإن الذي تغير بالنسبة لهما هو الوسط ، إذ كانا يعيشان في وسط إنساني مادي بل في منزلة خادمة أو جاروية من الرقيق الأبيض ، أما الآن فهي في عالم صغير محدود يرفعها إلى المقام الأول ، وهكذا ودعت بمجيئها إلى قرية « نزمان » عهد الذل والانحطاط .

إن نظرتها قد تطورت ، فهي ترى نفسها جميلة بين أولئك الفلاحات ، جميلة أكثر من أية مرة ، فإن أثواب الخدم التي ترتديها تبدو بالنسبة لثياب القرويات فاخرة ، أثارها البسيط جدير بالإعجاب !

لقد كانت هناك عوائق أولية تمنع اندماجها في المحيط

الحديد تتجلى في هذا النفور والحذر الذي يقابل بهما الأجنبي في البيئات المقفلة ، فقد كانت تعتقد أنها وعامر يؤلفان « زوحين غريبين ، متناقضين ، أضاع هو صفته القبلية وأضاعت هي صفتها الفرنسية » فكان لا بد أن تكون الخطوة الأولى من جانبها ، فقد أرادت التكيف والمحيط بعدل إرادى فيه كثير من التضحية بكبرياتها وكرامتها ، « فعاشت بقوة مع هؤلاء النسوة اللواتى كن يدفعنها إلى فهم لغتهن ، وإلى أن تجهد نفسها لإفهامهن ومجادلتهن بلغتهن ، فكان سلاحها في البدء الإشارات والحركات الوافقة حيناً وثير الوافقة حيناً آخر ، وينتهى كلاهما بانفجارات ضحكية » .

وقد ظنت أنها لن تستطيع تفكيك هذا التداخل في الأصوات البحاء الحلقية منها والحادة وهذا اللفظ السريع الذى يتصف به اللسان القبيلى ، « فكانت ترفع حواجبها ، وتبسط عينيها محاولة أن تفهم شيئاً مما يقال فتمعجز حتى عن إعادة ما سمعت » ، ثم إن هناك أصواتاً يستحيل لفظها لأن « لسانها كان يعجز عن ملاحظة الشباب الدقيقة جداً والأساسية غالباً ، فعلمت أن في الدنيا أشياء بخلاف الخمس وعشرين حرفاً في الأجدية الفرنسية » .

وهكذا كلما مر الزمن ازدادت أنساً بمحيطها الحديد .
وتكشفت لها نواح كانت تجهلها فعلمت مثلا أن وراء تأخر
المرأة العربية وانحطاطها المادى والاجتماعى صفات إنسانية
ومزايا خلقية تنطوى على الصبر والتسامح وسعة الصدر التى
تحكم بها على ضعف النفوس ، وعلى رافة مستمدة من هذه
القدرية العفوية واللامبالاة التى ليست سوى « تجربة حياة
لا حلاوة فيها » . وكانت ماري كلما توغلت فى تجربتها
أطلعت على خفايا الحياة الزوجية فى الريف الجزائرى ، فهو
عالم من الفضائل الخلقية والنفسية التى نقلها الفتح العربى وخلدها
الإسلام فالمرأة هناك « مهذبة » ، فيها حشمة وحياء وخفر
تستجيب لصنع المعروف وهى تحت مظاهر الإهمال نظيفة
لا تلمس الأشياء قبل أن تغسل يديها ، وتنتظر ميعاد الطهارة قبل
أن تجيز لنفسها طهى الطعام . . . وهى فى كل ذلك رضية ،
متواضعة شديدة الغيرة على عرضها وشرفها ، بعيدة عن الشهوة
الجنسية والضلال الخلقى لأن المهم عندها ليس الحب بل
الحياة ، فهى القضية الأساسية ، وكل شىء موقوف عاينها ،
ولذا كان نصيب هؤلاء القوم من المرح ضئيلا .
أما عامر فقد تطورت نظرتة إلى الحياة ، فقد أكسبته

التجارب والأيام السوداء التي مر بها نضجاً واتساعاً في الأفق العقلي فلم يعد للناس في نظره تلك « الهالة المثالية التي تضيفها عليهم الطفولة ، شأن الورق اللامع الذي تغلف به الصور ، فهو يرى الحشونة والتجعدات والشقوق » أي أنه يرى الحياة في صورتها البشعة الخفية .

لقد عاد من فرنسا مستجيباً لنداء الأرض ، حاملاً معه تجاربه التي هي في الوقت ذاته تجارب العمال الجزائريين الذين يعيشون في فرنسا منذ بدءوا في الهجرة إليها قبيل الحرب العالمية الأولى ، فهو لن ينسى مثلاً هؤلاء العمال الذين « يتكدسون في غرف أو أكواخ صغيرة ضيقة في نهاية الزقاق قريبة من خنادق المجارى الكبرى . . . هم أقل العمال أجوراً ، وأقلهم ثقافة ، وهم أحوج من غيرهم إلى التساند والاتحاد . يتقاتلون ويحسد بعضهم بعضاً ، ويشي بعضهم ببعض ، وجدوا في فرنسا مسرحاً لإيقاظ عصبياتهم القبلية وعنجهيتهم والتفاخر بأنسابهم وقبائلهم . يتجمعون هنا وهناك في شكل مستعمرات ، يقترنون على أنفسهم ليشتري أحدهم فيما بعد قطعة أرض من جاره في الجزائر ، أو قسماً من باحة ، يهلكون أنفسهم كالذباب ، بخلاء ، سيئو الطبع ، فيهم ذلة ومسكنة ، يعود العائدون منهم إلى

بلادهم وقد ملأهم الغرور والأناية ، أما الباقون ، فيعيشون في سفه ، يبذرون أجورهم ، فهم في بؤس مقيم ، يلوون القدر وأهم أخرى بأن يلووا أنفسهم .

إن هذا البؤس الذي تردى إليه المهاجر الجزائري لا يمنع من تلبية نداء أرضه الملح مهما بعدت الشقة وامتد الحجر وتزوت البلدان ، فهو حب أصيل تمكن من نفسه ، ففي هذه الأرض دفن الآباء والأجداد ، وبعثت الذكريات وحنّت القلوب ، إن حب الأرض وعدم التفريط بها يقسران إلى حد بعيد هذه الضراوة التي يدفع بها الجزائريون جحافل المستعمرين عن أرضهم ، فهي جزء من كيأنهم وعلى ضوء هذا التعلق الصوفي بأرض الوطن تفسر النزعة القومية الجزائرية ، ومن الطبيعي ألا يغفل كتاب الجزائر هذه الناحية فنحن واجدوها تقريباً في كل آثارهم ، وفي « الأرض والدماء » مقاطع رائعة تتجلى فيها هذه النزعة في نفوس القوم قال الشيخ رمضان لابن أخيه عامر : « إن أرضنا متواضعة ، فهي تحب بنيتها وتعوض عليهم من حيث لا يدرون ، كما أنها تتعرف على بنيتها ، وعلى الذين خلقوا من أجلها وخلقنا من أجلهم ، فهي لا تدفع الأيدي البيضاء والكسالى والضعفاء فحسب بل الأيدي المرتزقة التي تريد

استنقاد خيراتها دون أن يبحوحا (وما عليك إلا أن تشاهد حالة
 حقول الأغنياء التي أوكل العمل فيها إلى العمال المأجورين
 إن أرضنا ترفض الأيدي التي تدعى تزيينها وتجميلها ، ولا شأن
 لها بالمخارف المجروقة ، والزهور النادرة والحواجز المستقيمة ..
 إن جمالها يجب أن يكتشف ، ولذا يجب أن نحب الأرض . » .
 إن الوطن هو هذه الأرض التي يعيش الأحياء عليها ويأكلون
 من خيراتها ، وينام الأموات تحت ثراها ، هو هذا التراث
 الذي ينقله الأجداد للأحفاد فينقله هؤلاء بدورهم إلى أولادهم
 ترقبهم عيون الأموات وتشهد ما يفعلون لأن « الأموات دوماً
 على أبوابنا ، يشهدون حركاتنا ، ويسمعون كلامنا ويعرفون
 أسرارنا » .

إن الأوضاع الاستعمارية جعلت من الجزائر بلداً فارغاً
 مجدباً متأخراً اقتصادياً يعيش أهله في مستوى معاشي وغذائي
 منخفض لا يعادله في انخفاضه أفقر بلاد العالم ، وهذا ما يجعل
 مشكلة الفقر والبؤس من أعقد المشاكل التي يواجهها الواقع
 الجزائري ولا أعتقد أن شعباً على وجه الأرض عانى ما عاناه
 الشعب الجزائري من ألوان الحرمان ، والمنع والتقنين ، حتى
 أصبح الفقر والجوع صفتين في طباعه الأصيلة ، وقد انعكست

هذه الظاهرة على آثار كتاب الجزائر ، فلم يخلو منها كتاب أو رواية أو بحث . واستطاع مولود فرعون هو الآخر أن يجلو عن مظاهر الفقر في القبائل الجبلية صوراً فيها مرارة وحزن وتهكم ، بل استطاع أن يفلسف الفقر والحرمات بالنسبة للعقلية الريفية الجزائرية ، وأن يجعل من أبطاله فرائس ضعيفة مستسلمة للجوع شأن كمومة التي عاشت « تقتر على نفسها ، واعتادت ألا تأكل حاء الشبع ، إن الجوع رفيق قديم . . والطريقة سهلة ، يجب أن نقلل من وجباتنا الغذائية تدريجياً ، ثم إن هناك الصيام الذي يرضى الله ورسوله ويظهرنا بمظهر الأتقياء ، ويعرف الذين ألفوا الحرمان أنه من اليسير تحمل الجوع ، فهم يفقدون الشهية تدريجياً ثم تنخفض التغذية ، ولكنهم لا يتألمون أكثر من الذين ينعمون بالغذاء فهي قضية درجات . . وبعد فليس الفقر عيباً ولكنه حالة من الحالات يجب مجابتهها كغيرها ، فله قواعده التي يجب قبولها ، وقوانينه التي يجب الانصياع لها كيلا يكون الفقير فقيراً سيئاً ، لأن الفقير هو الذي يعرف قبل كل شيء كيف ينتظر ، إن الله يعطى دوماً لمن يجيد الانتظار ، ولذا يفضل الجيران الأغنياء ألا يخلوا مكانه فيكتفون عادة بالعزلة لئلا يكلوا خلف أبوابهم المقفلة . » .

وهناك مقاطع تحلل نفسيّتي الفقير والغني في هذه البيئة المحرومة ، بيئة الفقر الأصيل المأوف والغني العارض الغادر ، إن جل ما يستطيعه الإنسان هو أن يعيش بتحفظ ، ويسمى هذا عادة الحياء ، لأن في السعادة - انبأ من العار ، وليس هذا العار في مشاهدة بعض مظاهر البؤس بل عندما تبدو على السعيد علامات احتقار الآخرين . . . ولذا يختمني الغني حياء ليأكل جيداً ، ويختمني الفقير ليجوع على هواه ، ولكن الكثيرين لسوء الحظ يفقدون هذا الحياء ويصبحون مبغضين ، غير محتملين . «

إن الفقير الممقوت هو الذي يثقل على الآخرين ، لأن الناس يضيقون ذرعاً من سماع شكواه الدائمة وعرض بؤسه في شيء من الرضى والإعجاب بالذات ، فينتهي به الأمر إلى ارتكاب أنواع النذالات . أما الغني فيبدو بغيضاً عندما يحرم من نعمة التحفظ ، ونحن نقول : إن الغني الواسع يجد دوماً عتابه ، ولا نقول ذلك عن سداجة بل عن تجربة ، لأن لكل شيء في الدنيا ثمناً ، ولذا ارتسمت في أذهاننا تعريفات للفقير الجيد ، فهو الذي يعرف الانتظار ، ومن المسلم به أن الانتظار لأجل محدود ، لأن من يموت في البؤس دون أي تعويض يجد في الموت ذاته تعويضاً وعندها يقول

الناس : إن الموت قد أراح فلاناً ! فيكونون بذلك قد أدركوا
الحكمة الأزلية !

إن وراء اللوحة الروائية في « الأرض والدماء » دراسة
اجتماعية واقعية لعادات القبائل البربرية وتقاليدها واعتقاداتها
وأساطيرها التي نلقاها في البلدان ذات الرواسب البدائية التي
تعيش على هامش الحياة الحضرية . إن المظاهر العامة لهذا
المجتمع المقفل تتكون من « مجموعة من الدوائر الضيقة التي
تحبس الناس ضمن نطاق الأسر والقرايات ، وتجعل من
القرية قفصاً يعج بالناس حيث يلاصقون ويرصد بعضهم بعضاً ،
في فرنسا مثلاً ، في القرى الكبيرة والمدن الصغيرة والمراكز
الصناعية فإن الأسر تأتي وتستقر ، ثم ترحل نهائياً ، ويمكن
لأناس غرباء أن يتلاقوا ويعيشوا جنباً إلى جنب ، ثم يفترقون
بعد حين ، فهناك نوع من الحرية في الحرية ، أو شبه
استقلال ، أو نوع من الأنانية التي تجعل من الحياة معركة
حرة على الفرد أن يخوض غمارها وحده ، ضارباً كشحاً عن
غيره إلا بالقدر الذي هو في حاجة إلى مصالحهم ، فقد يمدد
أو يختصر علاقاته ، وينشئ لنفسه الضوابط ، في حين أن
الحالة في القرية القبلية مغايرة تماماً ، فالقرية وحدة اجتماعية

وجغرافية معاً ، فإن أولاد العمومة يسكنون في حي واحد ، والأسر مستقرة دوماً في أحيائها ، وإذا صادف وهاجرت إحدى الأسر إلى مدينة من مدن الجزائر فمن النادر أن يسمح لأسرة غريبة أن تحل محلها في القرية ، إن القرية جزء لا يتجزأ ، يعرف أفرادها بعضهم بعضاً منذ أجيال .

وفي الرواية أشياء طريفة عن عادات القبائل واعتقاداتهم مما نجد مثله في أرياف الشرق العربي ويكنى بأن تعلم بأن « العقم عند الرجال والنساء من علائم الغضب الإلهي ، وهو دليل على أن الذرية إلى انطفاء لأن أفرادها طغوا وتعجبروا . وأن أكل «أحشاء القنفذة المشوية» مدة سبعة أيام مخلوطة بالعسل ، أو الفطائر المغمورة بحليب الكلبة . وأن حشيش «المجنون» الذي لا يعرفه إلا القليلون ، وأن بقايا حشفة ختان الصبي كلها مفيدة للحمل . وأنتك إذا أردت إخماد فتنة بين فرقةين فما عليك إلا أخذ حصاة والبصق عليها ووضعها على الأرض من الجهة المبللة ! » .

وغير ذلك من الأشياء القائمة على الغيبيات والتماس روح الأجداد وعبادة الأولياء والصالحين والإيمان بالتنجيم ورحم الغيب وجميع مظاهر الحياة اليومية مما يضفي على الرواية صفة

وثيقة اجتماعية قيمة تكشف عن أسرار هؤلاء القوم .

وقد درجت على عادة إيراد بعض الصور الأدبية والفنية التي وفق الكاتب في إيرادها ودونك بعضها :

قال يصف رمضان وزوجه سمينة وهما جالسان أمام الموقدة : « كان الزوجان جالسين على ضوء جمرات حمراء يغطيها غشاء خفيف من الرماد ، وكان البيت مغموراً بالظلمة وشعر رمضان كأنه في قبر حيث لا شيء حتى إلا هذه الموقدة التي تنهار وتموت بدورها قليلاً قليلاً . كأننا صامتين ، حتى إن رمضان نسي جسمه المتعب ، ثم أخذ يحرق في لبه صغيرة تتراقص بين جمرتين ، مترددة ، شفاقة ، شفاقة كحجاب خيال مليء بالأسرار والأهواء ، فهي تارة تتوضح وترسم وتغلف بشره بقايا جمرة ، وتارة لا تتوصل جهودها الضائعة إلا في أحداث لولب صغير من الدخان ، فيلاحظ رمضان تكون كمية من الرماد على الحمر .

إن الحياة هكذا ، فهناك لهيب ينبع ويرتفع ثم يرتفع ولكن الرماد ذا اللون الصوفي يغطي في النهاية الحمر ، وفي الصباح تجمع ربة الدار حفنة من الغبار الأبيض وتملاً «كانونها» بالأعواد الصغيرة الجحافة لنار جديدة ولهيب جديد يعقبه رماد جديد ! ! » .

وقال يصف ضوء المصباح في المنجم : « ابتعد الضوء الصغير وهو يرتجف ، وتبعه عامر بنظره فصار كلما ابتعد تناقص نوره تدريجياً حتى صار ضوءاً غير حقيقي ، يشبه النجم أو دودة اليراع وانطفأ تماماً . » .

وقال في رجل سمين : « كأنه كيس من اللحم المترهل ! » .